الدرس الثانـــي عشر/الروايـة النسويـــة العـربيـة الجزائريـة:

تمثل الرواية النسوية الجزائرية المعاصرة، جنسًا أدبيًا مستحدثًا في خارطة الإبداع الجزائري، فقد شكلت عالمًا ضاجًّا مليئًا بالقضايا الفنية والأيديولوجية، وامتازت بجرأتها وتحديها للواقع، واستفزاز القارئ، إذْ عكست هواجس المرأة الكاتبة وشواغلها الذاتية والقومية والإنسانية. وقد سعت الكاتبة الجزائرية من خلال نصوصها الروائية إلى إبراز ذاتها ككيان مختلف وإثبات هويتها الأنثوية المتميزة عن هوية الآخر/المذكر/الرجل. وبالتالي إعادة هيكلة البناء الاجتماعي واقتراح منطق الذوات المتكافئة بدلاً من المركزية الذكورية، ومن ثم إلغاء كل صنوف القهر الاستلاب..، وراحت لأجل هذا تتمرد على كل النظم الاجتماعية والأسرية تكشف المكبوت حينًا وتكسر حواجز المحظور أحايين أخرى، وكل ذلك بوعي كتابي ورؤية أنثوية مغايرة في كثير من ملامحها للقلم الذكوري.

أولا/ بدايـة الروايـة النسويـة العربيـة الجزائريـــة:

تعود بدايتها إلى سنة(1979) مع رواية**(من يوميات مدرّسة حرة)** للروائية والقاصة**(زهور ونيسي)** وواضح من خلال ظلال السيرة الذاتية، حيث تدور أحداثها خلال مرحلة الثورة التحريرية مصورة نضال المرأة/المعلمة، مع العلم أن الروائية كانت معلمة قبل الاستقلال، وكان لها حظ من النضال أثناء الثورة ضد الاستعمار. وقد أردفت تلك الرواية بروايتين**(لونجة والغول)**، و**(جسر للبوح وآخر للحنين)**، وقد اشتغل(زهور ونيسي)على الذاكرة النضالية الثورية وصورت معاناة المرأة الجزائرية ونضالها في الثورة والحياة. وتاليها في الركب الروائية**(أحلام مستغانمي)** بروايتها الشهيرة**(ذاكرة الجسد)** سنة(1993) التي تشتغل على محوري الذاكرة والجسد: بطلها**(خالد بن طوبال)** و**(حياة)** وعلاقة الحب التي جمعتهما وآلت إلى الفشل، وتدور أحداثها زمنيًا خلال مرحلة الثورة التحريرية، ومرحلة التسعينيات بأحداثها المأساوية وقد أردفت هذه الرواية بروايتي**(فوضى الحواس)** و**(عابر سرير)** مشكلة ثلاثيتها الشهيرة، وتمتاز رواياتها بلغة شعرية شاعرية ذات ظلال، خلافًا لجل الروايات الجزائرية، وهو ما جعلها تتميز..

أما الروائية**(فضيلة الفاروق)** فكانت أكثر جرأة في اختراق المسكوت عنه، وذلك من خلال روايتَيْها **(مزاج مراهقة)** و**(تاء الخجل)**، حيث تناولت وضع المرأة في المجتمع الذكوري، وما تتعرض له من قهر واستلاب،خاصة خلال مرحلة العشرية السوداء،وصورت معاناتها،والعنف المحفوف بها، وانتكاساتها في العلاقة بالرجل، حيث تغلغت في مناطق اللاوعي الاجتماعي، وأوغلت في انتكاسات نفسية المرأة وذهنية الرجل. وتوالت التجارب الروائية النسوية فارضة حضورها في الساحة الأدبية الجزائرية.

ثانيـــا/ الســيـــرة الـذاتـيـــــــــة:

فقد اتخذت الكاتبة الجزائرية من(**ذاتها**) مرجعًا أساسيًا لممارستها الروائية، تصور من خلاله المغامرات الفردية التي قامت بها، وما وسمها من أشكال صراع وحالات إخفاق تتقاطع وخسران وطنها الجزائر زمن الاستقلال، وخاصة منـذ التسعينيات من القرن الماضي أكثر من رهان مع التاريخ. فكانت كتابتها الروائية كتابة ذاكرة بامتياز من خلال انشغالها المكثف على تقنية(**التذكر**) في استعادة جوانب من تاريخها الشخصي/ ذاكرتها الفردية، والذي يتقاطع ومراحل من سيرورة تاريخ وطنها/ ذاكرتها الجماعية. ويكشف هذا الطابع (**السير ذاتي**) الذي هو ميزة الرواية النسائية الجزائرية ذات التعبير العربي، تعمق شعور كاتبات هذا النمط الأدبي: بالاغتراب ـ الضياع ـ الاستلاب ـ القهر.. في مجتمعهن الذكوري. وهو ما يعلل توتر علاقتهن به وسعيهن الدائب إلى التحرر من كل أشكال هيمنته على وجودهن وذلك عبر فعل الكتابة التي تشكل معادلاً تعويضيًا لمظاهر من إخفاقات رهاناتهن الذاتية على الحياة/ وعلى الوطن الجزائر الذي خسر بدوره على مدى مسيرة استقلاله أكثر من رهان مع التاريخ.

ثالثـــا/عـوالـم الــروايـــة الـنـســويـــــة:

تشكل عوالم الرواية النسوية في شتى تجلياتها النفسية والحسية والذهنية، أسئلة مهمة في متن الحكائي للرواية النسائية، وهي عوالم تتأسس على أشكالها من المكاشفة و الاعترافات الصامتة التي يتداخل فيها المتخيل والحقيقي والحلمي، وتنجزها كاتبات هذا النمط الروائي في صياغة تراوح بين التصريح والتلميح والإعلان والاضمار.. وتقوم الذاكرة بدور أساسي في تشكيل هذه العوالم، وما تنبني عليه من تجارب حياتية تشكل قضايا: الحب ـ الزواج ـ الجسد.. مدارتها الجوهرية التي تدور في فلكها.

1/ فقد مَثَّل(**الحب**) تيمة أساسية في المتن الحكائي النسوي، حيث لا يكاد نص من نصوصه يخلو من الحديث عن(الحب) من خلال تصوير علاقة عاطفية أو أكثر، بصيغ تراوح بين الحياء والجرأة.. غير أن(**الحب**) يبدو رهانًا خاسرًا لجلّ بطلات الروايات النسائية الجزائرية، فكان العطب الصفة الدالة على ما عِشْنَه من علاقات عاطفية، تنتهي **بالفقدان/الموت** أو **بالهجر/الانفصال**. فمن النمط الأول نذكر المصائر الفاجعة لعلاقات: مليكة/أحمد في رواية(لونجة والغول) لزهور ونيسي، حيث تترمل(مليكة) بسبب استشهاد زوجها(أحمد) في الجبهة، و حياة/ زياد الشاعر الفلسطيني في (ذاكرة الجسد) لأحلام مستغانمي، حيث يستشهد(زياد) في إحدى المعارك بجنوب لبنان و جميلة/ الرشيد في (بحر الصمت) لياسمينة صالح بسبب استشهاد(رشيد) في الجبهة.

2/ أما النمط الثاني المقترن بـ**(الهجر)**، فمتواتر في الكثير من العلاقات العاطفية التي تعرضها نصوص هذه المدونة الروائية النسائية، ونمثل له بحياة/ خالد بن طوبال في رواية(ذاكرة الجسد) حيث تتخلى(حياة) عن(خالد بن طوبال) لتتزوج أحد كبار الضباط في الجزائر. و(حياة صاحبة الرداء الأسود) في(فوضى الحواس) و(عابر سرير)، بسبب حالة الحب المتلبس. وحورية/ايدير في رواية (رجل وثلاث نساء) لفاطمة العقون، بسبب تواكل الزوج على زوجته.. .

ويفسر تواتر حضور هذه العاطفة المعطوبة في المدونة الروائية النسائية، عطب علاقات الزواج الذي يشكل هو الآخر موضوعًا مهمًّا، يتقاطع وموضوع الحب، ويتواتر في أغلب المتون الحكائية لنصوص الروائيات، باعتباره يشكل مدار وجود الأنثى راهنًا و مستقبلاً. وتكشف حياة/ بطلة رواية(فوضى الحواس) للكاتبة(أحلام مستغانمي) عن عطب العلاقات الزوجية السائدة في هذا الزمن، في قولها: **(البدء نحن ندري مع من تزوجنا ثم كلما تقدم بنا الزواج لا نعود ندري مع من نعيش).**

3/ ويحضر في سياق تناول كاتبات هذه الرواية لموضوعي الحب والزواج، حديثهن عن(**الجسد)** من خلال تصوير علاقة الأنثى بجسدها في حال الإكراه/ كما في حال الاستجابة، إبراز موقفها الرافض والمدين للتصور الذكوري للجسد الأنثوي، والذي يدركه سبيلا لتحقيق اللذة والمتعة لا غير. وهو ما تعبر عنه الكاتب(أحلام مستغانمي) في قولها على لسان بطل روايتها(فوضى الحواس):(**لا مساحة للنساء خارج الجسد، والذاكرة ليست الطريق الذي يؤدي إليهن، في الواقع هناك طريقة واحدة لا أكثر..).**

4/ مثلت**(السياسة)** سؤالاً مركزيًا في أغلب المتون الحكائية لكاتبات الرواية الجزائرية، وذلك بسبب ما كان لها من تأثير عميق في واقع مجتمعهن، ومن أثار على وضع المرأة في مختلف أبعاده النفسية والذهنية والاجتماعية.. نسجل مواقف الروائيات الجزائريات من الثورة التحريرية والمشهد السياسي الراهن ونميز من خلالها رؤيتين:

الرؤية الأولى/ جاءت تقليدية تقوم على منظور نمطي للثورة و الاحتفاء بها، يرى فيها النموذج الأرقى والأكمل للفعل النضال، وهو ماجسدته رواية (**لونجة والغول)** لزهور ونيسي، حيث تعرض الكاتبة صورة ثورة التحرير في شكلها النموذجي المنزه عن كل الأخطاء والانحرافات والصراعات.... وتنحو رواية **(بحر الصمت)** لياسمينة صالح، منحى رواية(زهور ونيسي)، حيث تتناول ذات المرحلة الزمنية(مرحلة الثورة) إذْ ترفعها إلى مصاف المقدس، حيث (**تقدر على غسل آثار الناس لمجرد انتسابهم إليها)** .

أما الرؤيـة الثانيـة/ التي تم خلالها التعامل مع المسألة سياسيًا، فهي مغايرة للأولى، فجاءت نقدية للثورة التحريرية ولممارسات السلطة زمن الاستقلال، والزمن الراهن خصوصًا، في خطاب سياسي لا يتهيب من المحظور، إذْ ينزع إلى المباشرة في نقديته وإلى الوضوح في تسمية الأشياء بأسمائها وفي التعبير عن موقف الاحتجاج والإدانة، وقد أدركن أن الاستقلال خذل تطلعاتهن إلى الإسهام في تحديث مجتمعهن الجزائري. وتعود خشية الكاتبة الروائية من(**المجاهرة بسيرتها الذاتية**) إلى طبيعة المجتمع الجزائري الذكوري الذي يبقى محافظًا رغم ما قد يبدو عليه من علامات انفتاح وتحرر.. مما يعلل استثمارها تقنية(**القناع**) في عرض جوانب من سيرتها الذاتية، باستعارة(**ذات ذكورية**) تتولى الحكي مثل ما هو شأن شخصيات: خالد بن طوبال في رواية (ذاكرة الجسد)، أوصاحبة الثوب الأسود في روايتي(فوضى الحواس) و(عابر سرير) لأحلام مستغانمي. وعمر في رواية (بين فكي وطن)، والسي سعيد في رواية(في الجبة لا أحد) لزهرة ديك... وذلك لأن مساحة التسامح مع المرأة الكاتبة أقل بكثير من تلك التي يتمتع بها المبدع الرجل. فالقناع يوفر للكاتبة متعة وتوسيع من هامش الحرية والمناورة. ويضاف إلى استخدام المرأة الكاتبة(**القناع**)، التجاؤها إلى أفانين من الحيل الكلامية لكي تصوغ جوانب من سيرتها الذاتية كالمجاز، والاستعارة والتورية، وذلك استنادا إلى أفق تخيلي هو إلى الخطاب الروائي المتنوع أقرب منه إلى السير الذاتي أحادي الاتجاه من خلال التركيز على مكونات السير الذاتي بوصفها عناصر تكوينية في الخطاب الروائي.